**التوجه نحو الثقافة**

**مقدمة الجزء الأول**

ترجمة بتصرف  
أ.د. مضر خليل عمر

في إشارة إلى المناقشات والمناظرات العديدة و"نوبات الغضب" التي تدور حول مصطلح الثقافة ، تقول كاثرين ميتشل : "إن الافتقار إلى التحديد الدقيق لما تعنيه الثقافة في الواقع يدفع العديد من العلماء إلى التشتت" . والواقع أن مهمتنا في هذا الجزء لا تتلخص في تحديد مثل هذا المفهوم الزلق بقدر ما تتلخص في تطوير التقدير لتعقيده ولبعض أكثر المناهج تأثيراً في التعامل مع الثقافة داخل الجغرافيا وخارجها على وجه الخصوص . وكما تشير الاختيارات المختلفة الاتية ، فإن كلمة "ثقافة" هي واحدة من أكثر الكلمات إرباكاً وتعقيداً في اللغة الإنجليزية . ففي أحد الاختيارات الاتية ، على سبيل المثال ، يلاحظ كليفورد جيرتز أن أحد الكتب المدرسية المحددة حول هذا الموضوع ، وهو كتاب "مرآة الإنسان" (1949) لكلايد كلوكهون ، خصص نحو سبع وعشرين صفحة للمصطلح ، واستقر على ما لا يقل عن أحد عشر استخداماً أو تعريفاً مختلفاً .

لقد تم ربط "الثقافة" ، كما يلاحظ ريموند ويليامز في أحد الاختيارات الاتية ، بالحضارة (أي عملية التقدم الفكري والروحي والجمالي) ، كما كانت تعني أسلوب حياة كامل (وهو النهج الذي بدأه الفيلسوف الألماني يوهان جوتفريد فون هيردر)، كما تم ربطها بالأعمال والممارسات الفكرية والفنية (نوع الثقافة الذي يظهر في أقسام "الفنون" في الصحف الكبرى مثل صحيفة نيويورك تايمز أو صحيفة الجارديان). ولكن هناك أكثر من هذا في الثقافة . **يتمتع المصطلح بنوع من المرونة اللزجة التي سمحت له بالالتصاق بأي شيء له بعد رمزي ، أو أي شيء قد ينطوي على طريقة مميزة للقيام بالأشياء ، أو ببساطة طريقة فريدة للنظر أو التصرف أو تقديم الذات** . وقد لاحظ ستيوارت هول هذه المرونة ، ملاحظًا أن أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية هذه الأيام يمكن أن يكون له "ثقافة" مرتبطة به : "ثقافة المشاريع التجارية ، وثقافة مكان العمل ، ونمو ثقافة المشاريع ... "إن الثقافة هي ثقافة الذكورة ، وثقافة الأمومة والأسرة ، وثقافة تزيين المنزل والتسوق ، وثقافة إلغاء القيود ، بل وحتى ثقافة اللياقة البدنية ، بل وحتى ثقافة الجسد النحيف" .

ويتساءل المرء عما إذا كانت الثقافة تعني أي شيء على الإطلاق ! على أقل تقدير، ينبغي أن يكون من الواضح أن **الثقافة** ليست شيئًا بقدر ما هي فئة قابلة للتغيير من العلاقات والممارسات الاجتماعية . ولكن في الواقع هناك نقاش كبير بين العلماء ليس فقط فيما يتعلق بتعريف الثقافة والنهج المتبع في التعامل معها ، بل وأيضًا ما إذا كانت الثقافة مفيدة تحليليًا بأي شكل من الأشكال . إن اقتراح دون ميتشل على هذا المنوال ("لا يوجد شيء اسمه الثقافة") له أصداء عديدة داخل المجال الأوسع للدراسات الثقافية . ينظر العديد من العلماء إلى المصطلح بريبة صريحة ، ويضعونه بين علامتي اقتباس ("الثقافة") ، أو يتجنبونه تمامًا . وقد يعد البعض أنفسهم "ما بعد ثقافيين" . وهناك بالطبع عدة أسباب لذلك . على سبيل المثال ، فإن مرونة المصطلح تجعله غير دقيق من الناحية التحليلية . فهو قد يحجب أكثر مما يكشف ، وقد تكون هناك طرق أكثر دقة لتفسير الممارسة ، والمعتقد ، والطقوس ، والسلوك ، وما إلى ذلك ، بدلاً من عزوها إلى شيء غامض وغير محدد مثل الثقافة . وعلى هذا المنوال ، **يمكن للثقافة أن تكون قناعًا محايدًا أو طبيعيًا للاختلافات الجماعية التي لها تحديدات اجتماعية أكثر إزعاجًا** .

إن القول بأن شخصًا ما يفعل شيئًا ما بسبب "ثقافته" قد يكون له تأثير تحويل الانتباه التحليلي بعيدًا عن الهياكل الاجتماعية الأوسع التي قد تلعب دورًا في تحديد القرارات أو الخيارات السلوكية للناس . في مثال قضية الحجاب في فرنسا التي أثيرت في مقدمة الكتاب ، على سبيل المثال ، اقترح البعض أن عزو سلوك فاطمة وليلى وسميرة ببساطة إلى ثقافة تتجاهل الطبيعة السياسية المتأصلة لأفعالهن ، والتي كانت منظمة من خلال علاقات اجتماعية محددة قائمة على المكان . وبعبارات عامة ، قد تكون مثل هذه الهياكل غير منطقية . وتشمل هذه العناصر، على سبيل المثال ، العنصرية المؤسسية أو مختلف أشكال التمييز العرقي والجنساني و/أو الجنسي . وقد اقترحت ليلى أبو لغد هذه النقطة ، حيث زعمت في مختارات لاحقة من هذا المختار أن الثقافة تحمل قدراً كبيراً من الأمتعة الاستعمارية والإمبريالية بحيث لا يمكن استخدامها كفئة محايدة من الاستقصاء الاجتماعي . وبالنسبة لها ، ينبغي للعلماء أن يفعلوا ما في وسعهم لتفكيك الثقافة كفئة تفسيرية للسلوك أو الممارسة البشرية .

ولكن في الغالب ، لا يرغب معظم العلماء في التخلص من مفهوم الثقافة تماماً . على سبيل المثال ، يزعم هول أن النقطة ليست أن الثقافة توسعت إلى كل زاوية وركن من أركان الحياة الاجتماعية وبالتالي فقدت قدرتها على تحديد شريحة مميزة من الحياة الاجتماعية ، بل إن "كل ممارسة اجتماعية تعتمد على المعنى وترتبط به" ، وأن "الثقافة هي أحد الشروط التكوينية لوجود هذه الممارسة ، وأن كل ممارسة اجتماعية لها بُعد ثقافي . لا يعني هذا أنه لا يوجد شيء سوى الخطاب ، بل إن كل ممارسة اجتماعية تتسم بطابع خطابي". ويشير هول بـ "الطابع الخطابي" إلى فكرة مفادها أن **الممارسات الاجتماعية** ليست نتيجة تلقائية لـ "قوانين" اقتصادية ، على سبيل المثال، بل **إنها قرارات واعية يلعب فيها المعنى أيضًا دورًا** .

ويوجه جيمس ونانسي دنكان نداءً ذا صلة بالأهمية المستمرة للثقافة . ويشيران إلى أن الثقافة غير مستقرة بطبيعتها وأنه لا يوجد شيء مثل الثقافة النقية ، ويلاحظان أن القاعدة الآن هي الثقافات الهجينة ، وثقافات المناطق الحدودية ، والثقافات الضبابية ، والثقافات المتغيرة . وهذه النقطة تردد صدى الحجج التي طرحها أخيل جوبتا وجيمس فيرجسون ، في أحد الاختيارات الاتية . يزعم جوبتا وفيرجسون أنه في حين كانت الثقافة مرتبطة تقليديًا بمناطق أو أراضٍ ثابتة ومحدودة ، فقد أصبح من المفيد الآن التفكير في الثقافة من حيث مساحات الاختلاط ، والحدود ، وحتى التنقل . بالنسبة للزوجين دنكان ، إذن ، تكمن القوة التحليلية للثقافة في تحديد كيفية نشوء التكوينات الثقافية المستقرة نسبيًا في المقام الأول : "إذا كان التغيير، والعملية، والسيولة ، والتباين ، والتحول هي افتراضاتنا الوجودية الأساسية المبدئية ، فإن ما يصبح ملحوظًا هو تلك الأشياء المستقرة والمتماسكة نسبيًا مثل المنظمات والمؤسسات التي تترسخ بمرور الوقت والتي تحتفظ بشكلها ومحتواها عمومًا عبر الزمن وعبر المكان" .

بشكل عام ، وكما سيتضح أيضًا من الاختيارات في الجزء الثاني من القراءات ، يمكننا أن نلاحظ أن الثقافة سلكت مسارًا من وصف النتيجة السطحية لمحددات اجتماعية (أو حتى بيئية) أكثر أساسية إلى العمل كمتغير متزايد الأهمية لتفسير السلوك . وقد نشأ ظهور الثقافة كمتغير تفسيري لأن الثقافة مثلت بديلاً للمناهج التبسيطية التي شهدت استجابة البشر للتأثيرات الخارجية (مثل "البيئة" أو "علاقات الإنتاج") بطرق يمكن التنبؤ بها وميكانيكية تقريبًا . بعبارة أخرى ، فشلت مثل هذه المناهج في التعرف على "الطابع الخطابي" لهول المذكور أعلاه . ويواصل هول أنه بمرور الوقت **، أصبحت الثقافة تُرى كونها "شرطًا تكوينيًا لوجود الحياة الاجتماعية ، وليس متغيرًا تابعًا"** . ونتيجة لذلك ، أصبحت الثقافة محورية بشكل متزايد للتفسير في جميع العلوم الاجتماعية ، ومع هذه المركزية ، أصبحت التعريفات والمناهج المستخدمة في التعامل مع المصطلح منتشرة ومربكة بشكل متزايد .

إن الاختيارات الاتية لا تقدم وصفاً شاملاً لظهور الثقافة كمتغير تفسيري . ولكنها تقدم مجموعة مفيدة من المناهج المميزة للثقافة ، والتي لعبت جميعها وما زالت تلعب دوراً مهماً في جغرافية الثقافة . ونظراً لأن الجغرافيا (والعلوم الاجتماعية بمصطلحات أوسع) شهدت تحولاً ثقافياً منذ ثمانينيات القرن العشرين ، فمن المهم أن نفهم أن ليس كل من يعمل في هذا المجال يفهم الثقافة بالطريقة نفسها . وهذا يتسبب في قدر كبير من الجدل والارتباك غير الضروريين ربما . وكما يلاحظ ريموند ويليامز في اختياره ، فإن النقطة المهمة حول الثقافة ليست أنها تفلت من تعريف واحد ، بل إنها تلتقط قناعة مستمرة بين العلماء البشر بأن فهم السلوك ينطوي بالضرورة على تفسير كل من "المادي" و"الرمزي" . ويظل هذان البعدان في حالة توتر طوال البحث في العلوم الاجتماعية . إن السلوك البشري يتسم دوماً بطابعه الخطابي ـ المعاني التي تتسم عادة بالعلامات والرموز ـ وطابعه الأكثر تحديداً ـ أي استجاباتنا لقيود حياتنا المادية : الاحتياجات الأساسية للإنتاج والتكاثر والاستهلاك . والواقع أن المناقشات حول معنى الثقافة وفائدتها تدور إلى حد كبير حول أفضل السبل لحل التوتر بين هذه الأبعاد المادية والرمزية للسلوك البشري .

ولعل هذا التوتر له جذوره في المشكلة الأساسية التي تطرحها الميتافيزيقا الغربية : كيف ندرك العالم ونستوعبه ؟ وكيف يمكننا أن نتأكد من دقة تصوراتنا للعالم ؟ وكيف نختبر موثوقية المعرفة في ضوء الدور الذي تلعبه الذاتية والإدراك والتمثيل بالضرورة في تشكيل هذه المعرفة ؟ ولا شك أن الفلاسفة من أرسطو إلى ديكارت إلى كانط وهايدجر تصارعوا على نحو شهير مع هذه المشكلة . وإذا ما أعيدت صياغتها من منظور الثقافة ، فإن المشكلة تسأل **كيف يمكننا أن نستوعب الطرق التي ندرك بها العالم ونختبره ونمثله ، رمزياً ومعنويا ً، دون أن نفقد بعض الإحساس بـ"الواقع الخارجي والموضوعي" للعالم** . ونظراً لحقيقة مفادها أن فهمنا لكيفية وجود العالم في الواقع يعتمد على الكيفية التي نعرف بها العالم في المقام الأول ، فإن المعرفة قد تصبح دائرية بشكل محبط ، تعكس ذاتية المعرفة بقدر ما تعكس موضوعية ما هو معروف . والواقع أن المناقشات حول الثقافة هي في الأساس مناقشات تولدها هذه الإحباطات . ويقترح رايموند ويليامز ، **أن نتعامل مع الثقافة ليس كونها مجرد الجانب الرمزي أو الذاتي لهذا التوتر، بل كونها وسيلة لفهم التوتر ذاته** . ويبدو أن هذه نقطة انطلاق جيدة مثل أي نقطة انطلاق أخرى لاستكشاف المفهوم المركزي في جغرافية الثقافة .